الارتكازات العقلائية في اعتبار السيرة النبوية طريقًا لحقيَّة الرُسُلِ والرسالاتِ

أ.د عمر عيسى عمران اللهيبي
قسم العقيدة/ كلية العلوم الإسلامية/ الجامعة العراقية، العراق
dr.omaressa_1978@yahoo.com

مجلة نبيئنا
Journal Homepage: http://nabiyuna.com
ISSN: 2789-4290 (Print) ISSN 2789-4304 (Online)

الارتكازات العقلائية في اعتبار السيرة النبوية
طريقًا لحقيَّةِ الرُسُلِ والرِسالاتِ

عمر عيسى عمران اللهيبي [١]

١ – الجامعة العراقية/ كلية العلوم الإسلامية/ قسم العقيدة ، العراق؛

dr.omaressa_1978@yahoo.com

دكتوراه في العقيدة والفكر الإسلامي/ أستاذ

تاريخ التسلّم : ١٧/ ٨/ ٢٠٢٣
تاريخ القبول : ١/ ١٠/ ٢٠٢٣
تاريخ النشـر : ١/ ١٢/ ٢٠٢٣
السنة(٣)–المجلد(٣)
العدد(٦)
جمادي الأول ١٤٤٥ هـ
كانون الأول ٢٠٢٣م
DOI: 10.55568/n.v3i6.41-67

CC BY NC

الملخص :

تناول هذا البحث قضية الارتكاز العقلائي وهو من المباحث ذات الصلة العميقة بمبحث السيرة العقلائية، وهما مبحثان أصوليان بامتياز إلا أنه يمكن توظيفه في علوم ومعارف أخرى بعيدًا عن محله الذي يدرس فيه، فكما أنه يدرس ضمن مباحث الأصول وتطبيقات الفروع الفقهية حيث يمكن أن نوظفه في الكلام الإسلامي، وكذلك يمكن توظيفه في السيرة حيث يجب أن يلحظ فيه ثلاثة أمور اساسية: تباني العقلاء على الشيء، سكون النفس وانشراح القلب، عدم انخراق التباني ولو بشخص واحد.

وهذا ما حاول البحث تفصيله والاشارة إليه ومحاولة ربطه في اثبات النبوات عن طريق ملاحظة السيرة النبوية التي تعد دافعًا لتباني العقلاء على حقيَّة الرسالة المحمدية قبل الإسلام وبعده.

الكلمات المفتاحية: الارتكاز، العقلائي، السيرة النبوية، حقية، الرُسُلِ.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

وبعد: فإن علم أصول الفقه يعد من أكثر العلوم اعتناء به في الدرس الإمامي الإثني عشري، وهو بحق مفخرة العلوم والمعارف الإسلامية فضلا عن المدرسة الإمامية التي استطاعت من خلال بعض الكتب المدرسية المعروفة كـ "المعالم" و" القوانين" و" الرسائل" و" الكفاية" أن تسهم في تطوير الفكر العلمي الأصولي في الإسلام بعامة، والفكر الإمامي بخاصة.

ولا يسعني في هذا المجال، وأنا أتصحف النتاج الأصولي لهذه المدرسة على مرِّ التاريخ إلا أن استشعر بعمقٍ ما لعلماء الأصول من فضل عظيم في ترسيخ عقلانية الشريعة من خلال النتاجات العلمية التي تركوها في مباحث الأصلين: أصول الدين «علم الكلام»، وأصول الفقه.

وقد أولعتُ منذ وقت مبكر من تحصيلي العلمي بالدورات الأصولية لكثير من مدرسي الحوزة العلمية مع شغف القراءة لكثير من المصنفات في هذا الباب للمدرستين على حدٍّ سواء، ولا أدَّعي أنَّني ابنُ بَجدَتِهَا؛ بلْ على العكس تمامًا؛ فنظرًا لتكويني الفكري كنتُ أقرأ هذه المباحث على وعورة مسلكها، وصعوبة تحصيل الشيخ المجيد فيها، وأنا استشعر قصوري البيِّن بالمعنى الأخصِّ حيث المعاناةُ في قراءتها، وتحقيقِ مسائِلِهَا علمًا أنَّ اختصاصي هو علم الكلام، وهو العلم الأثير إلى قلبي أيضًا، وقد حاولت الرّبط بين مباحث العلمين قدر المستطاع، ومحاولة استكناه التطبيقات العلمية التي يمكن لها أن تثمر لنا رؤية معرفية من شأنها أن تحقق لنا مساحة من الحرية الفكرية التي نتحرك من خلالها لتثبيت معالم التسامح الديني، والوسطية المذهبية بين مدارس الإسلام أولا، ثم بين الإسلام وغيره من الأديان على قاعدة الاحترام المشترك، والتعايش السلمي.

ومن هنا جاء هذا البحث تتميمًا لفكرةٍ عَرَضتْ لي، وأنا أقرأ في مباحث السيرة العقلائية في الدَّرس الأصولي الإمامي؛ حيث انقدحت لي أفكار عدة، وبعيدًا عمَّن يريد التشكيك في هذا المبحث؛ فقد رأيت فيه طريقًا يمكن توظيفُهُ في خدمة مسائل دينية كثيرة، وحين علمت بمؤتمر دار الرسول الأعظم ﷺ العلمي الدولي الثالث سارعتُ إلى لملمة أوراقي في الموضوع مع كثرة المشاغل وازدحامها نظرًا لقرب الإمتحانات النهائية وانشغالي بالتدريس والتزامي بلجان وزارية وجامعية متنوعة إلا إنَّني رجوتُ أنْ تكون مشاركتي لها صدى طيب في دراسة فكرة الموضوع التي يمكن أن تكون باكورة دراسات لِمَا هو أعمقُ منها وأكثر جدةً، حيث يهمني هنا أني أثرت زناد الفكرة؛ لعلّي من بعدُ أسهم في تطويرها، أو يأتي غيري لتثويرها.

هذا وما التوفيق إلا من عند الله العزيز القدير.

المبحث الأول

الإطار المفاهيمي

المطلب الأول: مفهوم الارتكاز العقلائي

الارتكاز العقلائي مركب وصفي واعتيد أن يفكك المركب حتى يتسنى تعريفه تعريفًا دقيقًا، وبالرجوع إلى المظان اللغوية لجذر الكلمة ركز سنقف أنها تأتي لمعان، فالركز: غرزك شيئا منتصبا كالرمح ونحوه تركزه ركزا في مركزه، وقد ركزه يركزه ويركزه ركزا وركزه: غرزه في الأرض، أنشد ثعلب:

وأَشْطانُ الرِّماحِ مُرَكَّزاتٌ وحَوْمُ النَّعْمِ والحَلَقُ الحُلُولُ

والمراكز: منابت الأسنان. ومركز الجند: الموضع الذي أمروا أن يلزموه وأمروا أن لا يبرحوه. ومركز الرجل: موضعه. يقال: أخل فلان بمركزه. وارتكزت على القوس إذا وضعت سيتها بالأرض ثم اعتمدت عليها. ومركز الدائرة: وسطها. والمرتكز الساق من يلبس النبات: الذي طار عنه الورق. والمرتكز من يابس الحشيش: أن ترى ساقا وقد تطاير عنها ورقها وأغصانها. وركز الحر السفا يركزه ركزا: أثبته في الأرض[١] .

وارتكز: ثبَتَ واسْتَقَرَّ[٢] .

ويقال ارتكَزَ الرّجُل على قوسه، إذا وضَعَ سِيَتَها بالأرض ثمّ اعتمَدَ عليها. ومعناه أنَّه ذَهَب منه ما ذهبَ وارتكز هذا، أي ثَبَت[٣] .

ومن المَجَاز: ارتَكَزَ، إذا ثَبَتَ في مَحَلّه. يقال: دَخَل فُلانٌ فارتَكَزَ في مَحَلّه لا يَبْرحُ[٤] .

يستفاد من مجمل ما ذكر من معاني وأمثلة: أنّ معنى «الركز واشتقاقاته» يتضمّن ويحوي ثلاث جنبات: جنبة الخفاء، وجنبه الثبات، وجنبه الاعتماد، وإحداها أظهر في هذه المادة ومشتقاتها واستعمالاتها من الأخريين ألا وهي الخفاء، إذ استفيدت منها في الآية الكريمة على أنّها الصوت الخفي، وفي الرواية الشريفة أنّها الكنز المخفي، وفي استعمال الجاهلية إلى ما يدفن في الأرض،

١ الجوهري، الصحاح، ج٣، ٧٤٦.
٢ مجموعة مؤلفين، المعجم الوسيط، ج ١، ٣٦٩.
٣ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج٢، ٤٣٣.
٤ الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ج٨، ٧٢.

فالخفاء أوضح فيها من الثبات والاعتماد، وإنْ كانا ظاهرين من الأمثلة أيضًا؛ إذ يستفادان من مثل: الغرز، والاعتماد. . .

والخلاصة: إنّ المعنى اللغوي للارتكاز هو المعنى القابع في الأذهان، ويظهر من خلال الاستعمالات العرفية كأنَّهُ مستلٌّ منها؛ بل وجامع بينها، بمعنى أنّ معنى الارتكاز هو: الأمر المخفي المستقر والثابت في الذهن والذي هو محل اعتماد[٥].

أما العقلائي؛ فنسبة إلى العقلاء، لا إلى العقل، و«عقلاء» وزنها الصرفي هو «فعلاء» والذي يأتي بمعنى وصف لذات كـ«خيلاء» وهو وصف الكبر لذات شخص معيّن، وهو وزن من موازين ألف التأنيث الممدودة، ولذلك فهو ممنوع من الصرف[٦].

أمَّا معنى الارتكاز العقلائي بوصفه علما فقد ذكر الشيخ محمد علي الأنصاري في ذيل بحثه حول مصطلح ارتكاز تحت عنوان مظانّ البحث ما نصّه: "ليس للبحث عن الارتكاز موطن خاص، وإنما يتطرّق له بالمناسبة، ومن جملة ذلك البحث عن دليليّة السيرة على حجية خبر الواحد، لكن فتح السيد الصدر باباً مستقلاً لحجية السيرة في مبحث الظن"[٧]، وهذا يعني أن معنى «الارتكاز العقلائي» لا يُدرسُ استقلالًا إلا ضمنًا عند تعريف السيرة العقلائية.

ومن هنا فقد ذكر السيد الصدر في بحث علامات الحقيقة، ردًّا على إشكال الدور على علامية التبادر تعريفًا آخر للعلم الاجمالي - يختلف عن التعريف المعروف لذلك المعرّف المبحوث عنه في الأصول العملية- يمكن أن يقرّبنا من معنى الارتكازي: "المراد بالإجمالي العلم التفصيليّ الارتكازي البسيط وهو علم غير مقرون بالتفات النّفس إليه فعلًا»[٨][٩][١٠]*

٥ الموسوي، الارتكازات العقلائية ودورها في عملية الاستنباط الشهيد الصدر، القسم الأول، موقع الابدال، ٢٠٢٠م. https://al-abdal.net/22903/ .

٦ الحملاوي، شذا العرف في علم الصرف، ١٧.

٧ حب الله، مجلة فقه أهل البيت (عليهم السلام)، ع٢٠، ٢٣٥.

٨ العوايشة، الموسوعة الفقهية الميسرة، ج٢، ٣٩٢.

٩ الهاشمي، بحوث في علم الأصول، ج١، ١٦٤.

١٠ الحائري، مباحث الأصول، ق١، ج١، ٢٧٠.

*العلم الارتكازيّ البسيط بالوضع وهو أن يعلم الإنسان بالوضع من دون أن يعلم بعلمه، وذلك لغفلته وعدم التفاته فيكون العلم ثابتًا في أعماق النفس دون أن يعلم به.

أمّا العقلائي: فهناك فرق بين العقلي والعقلائي؛ إذ الأول ما يستقل العقل بإدراكه من دون حاجة إلى فعله خارجًا من قِبل العقلاء أو تبانيهم عليه؛ لأنّه ثابتٌ في لوح الواقع بقطع النظر عن تبانٍ من أحد أو اعتبار معتبر؛ والقرينة على ذلك عدم الاختلاف فيه، أمّا الثاني فهو تباني العقلاء على شيء وقد لا يكون وراء اعتبار العقلاء له واقع، وهو قسم من أقسام المشهورات المنطقية بالمعنى الأعمّ والتي هي «قضايا لا واقع لها إلا تطابق الآراء عليها، وهذا هو أساس التصديق بها»[١١].

وبعبارة أخرى: «قضايا اشتهرت بين الناس وذاع التصديق بها عند جميع العقلاء، أو أكثرهم، أو طائفة خاصة- لا واقع لهذه القضايا وراء تطابق الآراء عليها، بل واقعها ذلك»[١٢]

فـ «المشهورات هي القضايا التي تطابقت على صحة مضمونها آراء العقلاء جميعًا أو آراء ملة منهم أو تمّ التباني على قبول مضمونها عند أهل صناعة فيما بينهم دون أن يكون ذلك التباني ناشئاً عن إدراك العقل..»[١٣].

ويؤيِّد ذلك ما ذكره الشيخ الأصفهاني رحمه الله في تعريف الأحكام العقلائية حيث قال إنّها: "عبارة عن القضايا المشهورة التي تطابقت عليها آراء العقلاء حفظاً للنظام وإبقاءً للنوع"[١٤] والأحكام العقلائية عبارة أخرى عن ارتكازات العقلاء ونظراتهم.

وبناءً على هذا يمكن أن نعرِّف الارتكاز العقلائي بأنّه: «حالة ثابتة في صقع النفس عند العقلاء، وأنّها نشأت من غرائز فطرية عندهم، أو من التباني عليها منهم، وهم إمَّا أنّهم قد جروا على تلك الحالة الراسخة جريًا عمليًّا، أوْ أنّها بقيت مكنونة في داخلهم يلتفتون إليها، ويعلمون بها تفصيلًا بأدنى إشارة وتنبيه، ودوره يظهر على مستويين إمَّا على شكل سلوك اجتماعي، أو في فهم كلام ألقي إلى عرف عام»[١٥ *].

أو تعريفه بأنه ما ارتكز في أذهان العقلاء من دون اشتراط أن يتجسد ذلك الارتكاز بتمامه أو

١١ الصدر، الأسس المنطقية للاستقراء، مبادئ الاستدلالات الأخرى في المنطق الأرسطي، ج١، ٤٧٣.

١٢ المظفّر، المنطق، ٣٤٠.

١٣ صنقور، أساسيات المنطق، ٤١٩.

١٤ الأصفهاني، نهاية الدراية في شرح الكفاية، ج٣، ١٨.

١٥ العوايشة، الموسوعة الفقهية الميسرة، ج ٢، ٣٩١.

* ذكر الأنصاري، تعريفاً للارتكاز الأعم من العقلائي والمتشرعين وأنّه: "عبارة عن رسوخ بعض المفاهيم في ذهن الناس، وتارة تقوم على وفقه سيرة عملية وتارة لا تقوم -لأنّها مفاهيم نظرية- ومنشأ الارتكاز تارة يكون الفطرة والغريزة، وتارة القدرة التشريعية".

بعضه في أعمالهم خارجًا، وهو من جهة أعلى قيمة وأشد اعتبارًا من سيرتهم الخارجية؛ لكونه في الغالب ناشئًا من أمورٍ عقلائية كالفطرة، والعقل العملي، وتعاليم الأنبياء[١٦] .

وأرى أن هذا المصطلح يمكن أن تضاف إليه قيود أو ترفع من تعريفه بعض القيود حتى يسلم من الاعتراض والنقض؛ فيمكن أن يقال: الارتكازات العقلائية هي تباني العقلاء على شيء سواء كان لها واقع أم لا، وهذا التباني لم ينخرق مطلقا في زمن التباني؛ بل تطابقت الآراء جميعا على ذلك الشيء على اختلاف الرؤى والتوجهات الفكرية مع سكون النفس وثلج الصدر وطمأنينة القلب. وهذا الارتكاز ينقسم إلى أصيل، ومكتسب؛ أما الأصيل فنعني به القضايا المودعة في فطرة الانسان والمرتكزة في ذهنه، والمعبر عنها بقريحة العقلاء، وأما المكتسب فهو ما عدا ذلك، فقد تترسخ في النفس بعض القضايا جَّراء الشرائع التي يؤمن بها الشخص أو العادات والتقاليد والأعراف الاجتماعية أو الرؤى والافكار أو فتاوى الفقهاء أو التربية أو الدعاية أو غيرها[١٧] .

١٦ لجنة الفقه المعاصر، الفائق في الأصول، انتشارات مركز مديرية حوزه، ٢.
١٧ الترابي، السيرة العقلائية، الحلقة الأولى، ١٥٥.

المطلب الثاني: ارتباط الارتكاز العقلي بسكون النفس

لعلَّ مَنْ يستقرئ الكتب الكلامية سيجدها مشحونة بهذا النمط من الدلائل، وهو سكون نفوس العقلاء إلى الشيْ، ومنها ما ورد ذكره في باب النبوات؛ إذ جاء في -الفائق في أصول الدين- لابن الملاحمي المعتزلي في مسألة ارتكاب المعاصي وتنزيه الأنبياء عن ذلك؛ فقال:

فإن قيل: هذا بين في ارتكابها في حال النبوة؛ فما أنكرتم أن يرتكبها قبل النبوة ثم يتوب وينفصل منها ويدعو إلى خلافها بعد النبوة؟

قيل له: إن العقلاء لا يجرون قول من لم يجوزوا عليه معصية ولا جناية مجرى قول من يجوزون عليه ذلك، وإن علموا توبته منه. وإذا جربنا أنفسا في القبول من الغير فإنا نجدها أسكن إلى قبول قول من لا يجوز علية خلاف ما يدعوا إليه[١٨] .

فانظر الى قول ابن الملاحمي كيف يقف في تقرير المسألة على سكون نفس العقلاء، وهذا يشير إلى ما يسمى بالارتكاز العقلي الذي أشرنا إليه قبل قليل.

وفي معرض حديث القاضي عبد الجبار عن تعريف العلم أوضح أن المعرفة والدراية والعلم نظائر، ومعناها: ما يقتضي سكون النفس، وثلج الصدر، وطمأنينة القلب، وأمَّا معنى سكون النفس؛ فذكر القاضي عبد الجبار ما نصه:

فإن قيل: ما المراد بسكون النفس؟

قلنا: التفرقة التي يجدها الواحد منا من نفسه إذا رجع إليها، بين أن يعتقد كون زيد في الدار مشاهدة، وبين أن يعتقد كونه فيها لخبر واحد من أفناء الناس؛ فإنَّه يجد في إحدى الحالتين مزية وحالا لا يجدهما في الحالة الأخرى، تلك المزية هي التي عبرنا عنها بسكون النفس.

ثمَّ إن السكون إنَّما يكون حقيقة فيما يضاد الحركة ويعاقبها إذا كان مطلقا، فأما إذا قيد بالنفس، فإنه لا يحتمل إلا ما ذكرناه. وكما إذا قيد بالغضب، فيقال: سكن غضبه لم يحتمل إلا زواله وارتفاعه؛

١٨ صفي الدين، الفائق في أصول الدين، ٣٥٦.

فصار هذا كالنظر، فإنه يحتمل بإطلاقه ما لا يحتمله إذا قيد بالعين والقلب، وكالإدراك، فإنه يحتمل مطلقا ما لا يحتمله مقيدا.

على أنَّ المقصود من هذا كله أن نقف على الغرض المقصود بهذه العبارة إذا وقعت عليه، فلا مشاقة فيها إن شئت عبرت عنه بسكون النفس، أو ثلج الصدر، أو طمأنينة القلب، أو انشراح الصدر[١٩] .

١٩ القاضي، شرح الاصول الخمسة، ٢٢.

المبحث الثاني

مباني المدرستين في تقرير الرسل والرسالات

توطئة: حقيقة الرسل والرسالات

الرسول في اللغة: من الرسل الذي فيه استرسال ولين، والاسترسال الى شيء كالاستئناس والطمأنينة، والترسل في الأمر والمنطق كالتمهل والتوقر والتثبت، والجمعُ رُسُل [٢٠].

وفي الاصطلاح: « انسان بعثه الله(عزوجل) الى الخلق لتبليغ الأحكام »[٢١] [٢٢]، فالرسول أفضل بالوحي الخاص الذي فوق وحي النبوة، لأن الرسول هو من أوحى اليه جبريل عليه السلام خاصةً بتنزيل الكتاب من الله (عزوجل)[٢٣] [٢٤].

ويقول الشيخ المفيد بعد تعريفه للنبي: « الرسول هو الإنسان المخبر عن الله(عزوجل) بغير واسطةٍ من البشر، وله شريعة إما مبتدئة كالنبي آدم عليه السلام؛ أو تكملة لما قبلها كالنبي محمد صلى الله عليه وآله مأمورٌ من الله (عزوجل) بتبليغ الأوامر والنواهي الى قوم »[٢٥].

أما الرسالة: فهي تكليف الله (عزوجل) أحد أنبيائه بإبلاغ الناس شرعاً أو حكماً، فهي إذاً: علاقة بين النبي وسائر الناس »[٢٦].

---

٢٠ الفراهيدي، العين، ١١٨.

٢١ الجرجاني، التعريفات، ٤٩.

٢٢ الطوسي، الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد، ٢٤٥.

٢٣ الجرجاني، التعريفات، ١٠٥.

٢٤ الدوري، العقيدة الاسلامية ومذاهبها، ٤٤٥.

٢٥ المفيد، النكت الاعتقادية، ٣٤.

٢٦ الغزالي، الاقتصاد في الاعتقاد، ١٣٧.

المطلب الأول: تقرير نبوة الرسول الاكرم ﷺ عند الإمامية

يتفق الإمامية في نبوة سيد الأنبياء والمرسلين الرسول الأكرم محمد ﷺ كما اتفقوا على ما يتعلق بهذه النبوة المباركة من حيث إرساله الى الناس كافة، وما ظهر في وقت ولادته من معاجز وكرامات خارقةٍ للعادات، وأنه سيد ولد آدم وخاتم الأنبياء، وإن شريعته ناسخة للشرائع السابقة.

إنَّ هذا النبي الكريم منذ ولادته قد بانت بشارات نبوته؛ إذ كان مما روي عن والدته السيدة آمنة بنت وهب (عليها السلام)؛ أنها قالت: «أنه أتاني المخاض، وأنا وحدي، فلما وضعته ﷺ رأيته ساجداً، قد رفع إصبعه الى السماء كالمبتهل المتضرع؛ ثم غشتني سحابة غيبته عن عيني، وسمعتُ منها كلاماً، ثم أُعيد إليَّ وهو مُدرَجٌ في ثوب صوف أشد بياضاً من الثلج، وتحته حريرةٌ خضراء، ووُلِد ﷺ طاهراً مُطهَراً» [٢٧].

ولَمَّا وُلِد رسول الله ﷺ رُجِمت الشياطين، وانقضَّت الكواكب، وأصابت الناس زلزلة عمَّت جميع الدنيا حتى تهدَّمت الكنائس والبيع، وزال كلَّ شيءٍ يُعبَد من دون الله (عزوجل) عن موضعه، وعمِّيَت على السحرة والكهان أُمورهم وحُبِسَت شياطينهم، وطلعت نجوم لم تُرَ قبل، وزُلزِلَ إيوان كسرى؛ فسقطت منه ثلاث عشرةَ شرَّافة، وخمدت نار فارس، ولم تكن خمدت قبل ذلك بألف عام وغيرها من الأحداث التي وافقت ولادته ﷺ [٢٨ ٢٩ ٣٠ ٣١].

ثمَّ إن جدَّهُ عبد المطلب ﷺ أتى أمه ﷺ؛ فسألها عن حالها؛ فأخبرته بولادتها والآيات التي رأتها فقال لها: أريني الولد؛ فقالت: «لا سبيل لأحد إلى رؤيته حتى تمضي ثلاثة أيام» فعند ذلك جرد سيفه ليقتل نفسه؛ فقالت: «هو في ذلك البيت ادخل إن أحببت أن تراه» فلما دخل عبد المطلب تراءى له رجل، وقال إليك يا عبد المطلب لا سبيل لك إلى رؤيته حتى تنقطع عنه زيارة الملائكة [٣٢].

---

٢٧ الكراكي، كنز الفوائد، ج١، ١٦٤.
٢٨ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج١، ٣٢٩.
٢٩ الكراكي، كنز الفوائد، ج١، ١٦٦.
٣٠ الاسترابادي، البراهين القاطعة، ج٣، ٢٧.
٣١ السبحاني، السيرة المحمدية على ضوء الكتاب والسنة والتاريخ الصحيح، ٣٤.
٣٢ الكراكي، كنز الفوائد، ج ١، ١٦٦ – ١٦٧.

وقد روى نقلة الأخبار وحَمَلَة الآثار من الخاص والعام أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أنا سيد ولد آدم» [٣٣] [٣٤]

والدلائل السمعية دلَّت على أنه ﷺ مبعوثٌ إلى الثقلين لا إلى العرب فقط على ما زعم بعض اليهود والنصارى زعمًا منهم أن الاحتياج إلى النبي إنَّما كان للعرب خاصة دون أهل الكتابين، وكما جاء في قوله (عزوجل) ﴿ أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف: ١٥٨)، وقوله (عزوجل):وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا (سبأ: ٢٨).

وقوله ﷺ: «بُعِثتُ الى الأسود والأبيض والأحمر» [٣٥] [٣٦] وله لهذا شفاعة العاصين في يوم الدين كما يُستفاد من الكتاب المبين، وهو أفضل من الملائكة، وكذا غيره من الأنبياء:[٣٧] [٣٨] [٣٩]؛ لذلك فقد ثبتت نبوة الرسول الأكرم ﷺ بجميع الطرق لمعرفة الأنبياء وإثبات نبوتهم، وذلك:

ادِّعاؤه النبوة، أي قوله ﷺ: «إني نبي الله إليكم» كما قال (عزوجل) حاكياً عن رسوله ﷺ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٨).

إظهار المعاجز وخوارق العادات مِمَّا يعجز عنه أبناء جنسه من عامة الناس.

وصفه لله (عزوجل) بالوصف اللائق به عز وجل، لا الوصف الذي ينكره العقل والفطرة السليمة، وبيان حقيقة رسالته، وعلو أحكامه، وجامعية شريعته [٤٠] [٤١].

---

٣٣ الصدوق، معاني الأخبار، باب معنى قول النبي ﷺ في الامام علي بن ابي طالب (عليه السلام) أنَّه سيد العرب، ج١-٢، ١٠٣.

٣٤ الصدوق، الأمالي، المجلس العاشر، ج١٠، ص٤٠.

٣٥ النيشابوري، روضة الواعظين، باب الكلام في مبعث نبينا محمد ﷺ، ج١، ١٤٣ - ١٤٦.

٣٦ المجلسي، بحار الأنوار، باب فضائله وخصائصه ﷺ وما امتن الله به على عباده، ج ١٦، ٣٠٨.

٣٧ الطوسي، تجريد العقائد، ١٣١.

٣٨ المجلسي، بحار الأنوار، ج١٦، ٣٠٨.

٣٩ الاسترابادي، البراهين القاطعة، ج٣، ٦٤ - ٦٥.

٤٠ بن علي، شرح اصول العقائد، ج٣، ١٦٠ - ١٦١.

٤١ الصدر، العقائد الحقة، ٢٣٥.

المطلب الثاني: تقرير أهل السنة نبوة ورسالة النبي الخاتم ﷺ

يقرر فريق أهل السنة دلائل نبوة نبينا ﷺ من جوانب كثيرة، منها:

ما استدل بها أهل الكتاب ما وجدوه في التوراة والإنجيل من ذكره ونعته، وخروجه بأرض العرب، وإن كان كثير منهم حرفوها عن مواضعها.

ومنها أيضًا ما حدث بين أيام مولده ومبعثه ﷺ من الأمور الغريبة والأكوان العجيبة القادحة في سلطان أئمة الكفر والموهية لكلمتهم المؤيدة لشأن العرب.

منها خمود نار فارس، أي انطفاؤها وقت غيض بحيرتها- بحيرة ساوة-؛ فكأنها طُفِئت بمائها.

وسقوط شرفات إيوان كسرى.

وغَيض ماء بحيرة طبرية، وهي مدينة معروفة في بلاد الشام.

ورؤيا الموبذان.

ومنها ما سمعوه من الهواتف الصارخة بنعوته وأوصافه، والرموز المتضمنة لبيان شأنه ﷺ.

وما وُجد من الكهنة والجن في تصديقه، وإشارتهم على أوليائهم من الإنس بالإيمان بهم.

ومنها انتكاس الأصنام المعبودة وخرورها لوجوهها من غير دافعٍ لها عن أمكنتها.. إلى سائر ما رُوي من الأخبار المشهورة في ظهور العجائب في ولادته ﷺ وأيام حضانته، وبعدها الى أن بُعِثَ نبيًّا وبعد ما بُعِث [٤٢] [٤٣].

أمَّا ثبوت نبوته ﷺ فلتواتر الأخبار عن معجزاته الناقضة للعادة كالقرآن الكريم الذي عجزت العرب عن معارضته بمثله، وقد تحداهم به مع حرصهم على تكذيبه « فإذا كان الإنسان يعجز عن الإتيان بالقرآن الكريم فهذا دليلٌ على أنه ليس من صنع البشر؛ بل هو من صنع الله (عزوجل)، وصل إلى محمد ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام، ولا طريق الى ذلك إلا طريق الوحي؛ إذاً فالنبي محمد ﷺ رسول الله أرسله للناس كافة، وقد فعل القرآن الكريم في النفوس ما لم يستطع أن يفعله كلُّ مصلحي العالم؛ فكان دليلًا على أنَّه كلام الله (عزوجل) أرسله الى نبيه محمد ﷺ [٤٤].

٤٢ البيهقي، دلائل النبوة، ج١، ١٨-١٩.

٤٣ القاضي، شرح الشفا، ٧٤٤ - ٧٥٢.

٤٤ الغزالي، الاقتصاد في الاعتقاد، ١٤٦.

وكذلك سائر معجزاته ﷺ مثل انشقاق القمر، وتسبيح الحصى في يده، ونبوع الماء من بين أصابعه، وإشباع الخلق الكثير من الطعام اليسير، واقبال الشجرة إليه، ورجوعها بأمره إلى مغرسها، ونحو ذلك من الأُمور الناقضة للعادة الدالة على صدق مَن ظهرت عليه في دعواه [٤٥] .

وفي إثبات نبوته أيضًا ﷺ، يقول الرازي: « إنَّ محمدًا ﷺ ادَّعى النبوة، وظهرت المعجزة على وفق دعواه، وكلُّ من كان كذلك كان رسولًا حقًّا. ينتج: أنَّ محمدًا ﷺ رسولُ اللهِ حقًّا »[٤٦] .

٤٥ البغدادي، اصول الدين، ١٦٢.

٤٦ الغزالي، الأربعين في اصول الدين، ج٢، ٧٦.

المبحث الثالث

وسائل حقية الرسل والرسالات

المطلب الأول اثبات النبوة بالمعجزات

تعد المعجزة ضرورة من ضروريات الرسالة تأييدًا لصدق دعوته، وتحقيق الغاية التي خلق الإنسان من أجلها، وهي هداية الله الحكيم للبشر ودلالاتهم على ما فيه كمالهم النفسي والروحي والإنساني، سيفقدها نتيجتها المطلوبة، وسيظل احتمال كذب دعواهم أو الشك في صدقهم قائمًا، وستفشل في تحقيق الغاية من معيشتهم. أمَّا إذا اقترنت دعوتهم بما يؤيدها من إظهار الله (عزوجل) المعجزة على أيديهم؛ فإنَّ ذلك يعني أن الله (عزوجل) قد قبله كلما له تأثير في تسمية إيمانهم بهذه الدعوى والتصديق بصحتها [٤٧] .

وقد اختلف العلماء في تعريف معنى المعجزة على أقوال كثيرة منها ما يأتي:

الاول: أمرٌ خارقٌ للعادة قُصد بهِ إظهار صدق من أدعى أنهَّ رسول ﷺ من الله (عزوجل) [٤٨]

الثاني: كل ما قصد بهِ إظهار صدق المتحدي بالنبوة المدعي الرسالة [٤٩]

الثالث: أمرٌ خارق للعادة، مقرون بالتحدي مع عدم المعارضة، ينزل من مولانا جلَّ وعلا منزلة قوله صدق عبدي في كل ما يبلغ عني [٥٠] [٥١]

وهذا التعريف هو أشمل تعريف لحصره شروط المعجزة التي سنأتي على ذكرها؛ فقوله – أمر؛ لأن الأمر يتناول الفعل كنبع الماء بين يديهِ ﷺ وعدم الفعل كعدم إحراق النار لإبراهيم (عليه السلام).

وقولُهُ –مقارنة للتحدي– ليخرج به كرامات الأنبياء، أو كرامات الأولياء، وقولُهُ –مع عدم المعارضة–، أي: انعدام معارضهِ بالسحر والشعوذة، أو يعجز المعارض أن يأتي بمثل المعجزة.

---

٤٧ نعمة ، عقيدتنا في الخالق والنبوة والآخرة، ٢٨٩ – ٢٩٠.

٤٨ التفتازاني، شرح العقيدة النسفية، ٤٠.

٤٩ الآمدي ، غاية المرام في علم الكلام، ج١، ٣٣٣.

٥٠ الدسوقي، أم البراهين بحاشية الدسوقي، ١٧٦–١٧٧ .

٥١ التفتازاني، شرح المقاصد، ج٢ ، ١٧٦.

أنواع المعجزة

قسم العلماء المعجزات باعتبار طرقها على قسمين، وهي:

اولاً: ما وصل إلينا متواترًا كالقرآن الكريم؛ فصار علمه قطعيًّا.

ثانياً: لم يصل إلينا علمه مبلغ الضرورة والقطع، وهذا ينقسم على قسمين: -

١- المشتهر: كنبع الماء من بين أصابع النبي ﷺ وتكثير الطعام وكلام الضب والذراع.

٢- عن طريق الاحاد كمجيء الشجر إليه ﷺ وتسليم الحجر عليه وتسبيح الحصى في يديه.

قال القاضي عياض هذه المرويات عن رسول الله ﷺ ولو كانت آحادًا منبهة على القطع لتواترها بالمعنى [٥٢]

أما أنواع المعجزة من حيث ماهيتها فهي: -

أولا : معجزة مقدورة للبشر: أتى على تقدير خلق القدرة فيه بأن يكون ذلك تحت قدرتهم؛ فيعجزون عنها لتعجيز الله إيَّاهم ليصرف توجههم عنها؛ فيكون فعله تعالى دليلًا على صدق نبيهِ، وهي بصريح العبارة، قوله -صدق عبدي في دعواه الرسالة- كصرف الله (عزوجل) لكفار اليهود عن تمني الموت بقوله تعالى :﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾(البقرة: ٩٤ - ٩٥)

ثانياً: معجزة لا تدخل في جنس أفعال البشر: كإحياء الموتى وقلب العصى حية معجزة لموسى (عليه السلام)ونبع الماء من بين أصابع نبينا محمد ﷺ وانشقاق القمر كما في قوله : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾(القمر: ١)

ثالثاً: المعجزة لا تكون فيه أو له؛ كالقرآن الكريم، وهو نوع أعجز الله (عزوجل) بهِ الكفار بأن يأتوا بمثلهِ إذا أظهره الله سُبحانه وتعالى على لسان نبيه ﷺ تعجيزًا لهم بأن يأتوا بمثل فصاحته وبلاغته وجزالته وأخباره الأمور الغيبية الواقعة سابقًا ولاحقًا؛ فالمعجزة هنا متحققة من جهة المبنى والمعنى [٥٣ ٥٤ ٥٥] .

٥٢ القاضي، شرح الشفا، ٥٣٥.

٥٣ القاضي.

٥٤ البغدادي، أصول الدين ، ١٧١-١٧٢.

٥٥ الماوردي، اعلام النبوة، ج١، ٤٢.

إذن فالمعجزة كما تكون برهانًا على نبوة النبي كذلك تكون دليلًا على وجود الواجب القديم، وهي ما يتوقف عليها إثبات النبوة، واتمام الحجة، وقطع المعذرة؛ فتكون معجزة حتمية [٥٦]

وفيما يتعلق بنبوة نبينا الأكرم ﷺ فالدليل العقلي عليها ما يأتي:

أولاً: جاء بالتواتر والاتفاق أن النبي ﷺ ادعى النبوة وأظهر المعجزة [٥٧] منها معجزات انطوت في مَر الزمان ومنها المعجزة الخالدة الى يومنا هذا وهي القرآن الكريم. وأنه ﷺ دعا قومه وهم أرباب الفصاحة والبلاغة الى أن يأتوا بمثلهِ فعجزوا عن ذلك كما في قولهِ تعالى:﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾(البقرة: ٢٣)

ثانياً: إن معجزة الرسالة المحمدية لا تنفصل عن جوهرها؛ فآي القرآن الكريم وما تضمنته من قيم العدالة الاجتماعية والسياسية وبما تغرسه في الطبائع من أدب وأخلاق واستقامة دليل رسالة الإسلام ومعجزته [٥٨] .

ثالثًا: لاريب أن المعجزات دليل صحيح، ولكن دليل صدق الأنبياء وحقية رسالاتهم غير محصور بها؛ لأنَّ النبوة يمكن أن يدعيها أصدق الصادقين، أو أكذب الكاذبين، ومَن ادعى النبوة من الكاذبين إلا وقد ظهر عليهِ ما يدل على جهلهِ وكذبهِ واستحواذ الشياطين عليه كما في قوله تعالى: ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين﴾(الشعراء: ٢٢١)

رابعاً: إخباره ﷺ عن وقائع الأمم السابقة؛ إذ أخبر عمَّا وقع في الازمنة الماضية فما ترك مِن أديان البشر إلا وعرَّف بأهله واستخلص العبر من قصصهم واستعرض حالهم على خصومهم ومؤيديهم فقال (عزوجل): ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هُذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾(يوسف: ٣) [٥٩]

وأخبر عن أحداث ستقع ولم تكن قد وقعت بعد، أي: مطابقًا لَما ورد على الوجه الذي

٥٦ المحسني، صراط الحق في المعارف الاسلامية والاصول الاعتقادية، ج٣، ٤٦.

٥٧ التفتازاني، شرح المقاصد، ج٢، ١٨٣.

٥٨ الغزال ، عقيدة المسلم، ٢٢٥.

٥٩ البهيقي، دلائل النبوة للبيهقي، ٢٣١.

أخبر كقوله(عزوجل): ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾(الفتح: ٢٧) .

وقال تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾(الحجر: ٩)، أي لحافظون له من التحريف والزيادة والنقصان، وهذا ما تواتر عن العلماء [٦٠] ومِن بعد نبيِّهِ ظلَّ القرآن كتاب الإسلام الناطق بدعوتهِ وحجتهِ معًا [٦١] .

خامسًا: إسلام اليهود والنصارى بدلائل البشارات التي جاءت في كتبهم وإلى عصرنا الحالي؛ فمن أهل الكتاب من آمن بالإسلام دينًا، وآمنوا بالله ورسوله كما قال (عزوجل): ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (آل عمران: ١١٣ – ١١٤) ؛ فمن هؤلاء عبد الله بن سلام، وكان من أحبار اليهود، وأعلمهم بالتوراة؛ فلمَّا سمع بمقدم الرسولﷺ المدينة دخل عليهِ وأشهر إسلامه وأخبر قومه بذلك[٦٢] .

٦٠ القاضي، شرح الشفا، ٥٦٣-٥٦٤.
٦١ الغزالي، عقيدة المسلم، ٢٢٧.
٦٢ البيهقي، دلائل النبوة، ٢٤٨.

المطلب الثاني: سيرة الرسل دليل حقية رسالتهم

ذهب كثير من العلماء بأن القول من أنه لا سبيل لإثبات صدق النبوة إلا بالمعجزة قول فيه نظر، وإن قال به بعضُ النُظّار؛ بل صِدْقُ الرسول يتبيَّنُ بطرق شتى يفيد مجموعها اليقين، وإن كانت آحادها ظنية، كالاستدلال بأحوال الرسول وسيرته وحسن أخلاقه وكمال خِلْقته، واتساق أحكامه وتعاليمه وجمعها للمحاسن والمصالح، وخُلوّها من التناقض والفساد... إلخ.

ولهذا قال ابن حزم في كتابه «الفصل»: إنَّ سيرة محمد ﷺ لمن تدبَّرها تقتضي تصديقه ضرورة، وتشهد له بأنه رسول الله ﷺ حقا، فلو لم تكن له معجزة غير سيرته ﷺ لكفى [٦٣] .

وهذا الكلام مبتنى على قضية الارتكاز العقلي؛ إذ أنَّ الناس يميِّزون الصادق من الكاذب في أمورٍ هي أهون بكثير من أمر النبوة، فما ظنك بمن ادَّعى أنه نبيٌّ يوحى إليه من الله تعالى، ومن المحال ألا يتبين الناس الصادق من الكاذب في مثل هذه الدعوى العظيمة!

وهذا معنى قول حسان بن ثابت:

لو لم تكن فيه آياتٌ مبيّنةٌ

كانت بديهتُه تأتيك بالخبر

قال تعالى:﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾ (الأحزاب: ٢١).

قال الحافظ ابن كثير [٦٤] «هذه الآية أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله، ولهذا أُمر الناس بالتأسي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه (عز وجل)، ولهذا قال تعالى للذين تقلقوا وتضجروا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة أي: هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله ﷺ؟».

٦٣ ابن حزم، الفصل في الملل والاهواء والنحل، ج٢، ٧٣.

٦٤ ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج ٦، ٣٥٠.

قال ابن حزم[٦٥] : «من أراد خير الآخرة، وحكمة الدنيا، وعدل السيرة، والاحتواء على محاسن الأخلاق ـ كلها ـ واستحقاق الفضائل بأسرها، فليقتد بمحمد رسول الله ﷺ، وليستعمل أخلاقه، وسيرته ما أمكنه، أعاننا الله (عزوجل)على الأتساء به، بمنِّهِ، آمين».

وهذه الطريقة في الاستدلال قد ارتضاها كثيرٌ من أئمة الكلام كالجاحظ وثمامة بن أشرس من المعتزلة، وأشار إليها أبو حامد الغزالي في كتابيه «المنقذ» و«القسطاس»، ورجَّحها فخر الدين الرازي في كتابه «المعالم في أصول الدين» حيث قال:

وهذه الطريقة عندي أفضل وأكمل من الطريقة الأولى أي الاستدلال بالمعجزة لأن هذا يجري مجرى برهان اللم، لأَنا بحثنا عَن معنى النُّبُوَّة فَعلمنَا أَن مَعْنَاهَا أَنه شخص بلغ فِي الْكَمَال فِي الْقُوَّة النظرية وَفِي الْقُوَّة العملية إِلَى حَيْثُ يقدر على معالجة النَّاقِص فِي هَاتين القوتين وَعلمنَا أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ كَانَ أكمل الْبشر فِي هَذَا الْمَعْنى فَوَجَبَ كَونه أفضل الْأَنْبِيَاء وأما الطريق الأول فهو يجري مجرى برهان الإنّ، فإنا نستدل بحصول المعجزات على كونه نبيا، وهو يجري مجرى الاستدلال بأثر من آثار الشيء على وجوده، ولا شك أن برهان اللمّ أقوى من برهان الإن.[٦٦]

وبالنسبة للرسول الكريم محمد ﷺ فيتضح بما لا لبس فيه أن الارتكاز العقلي الذي قام عند المشركين في الجاهلية كان من الدلائل التي يمكن توظيفها مع الدلائل الاخرى لإثبات حقية الرسل والرسالات؛ فصدق النبي ﷺ وأمانته قبل البعثة أمرٌ مشهور، وقد بلغ من شهرته أنه لُقب بالصادق الأمين، وليس هذا باعتراف المسلمين أنفسهم، بل باعتراف كفار مكة، حتى إنه لما جمعهم لكي يبلغهم رسالة ربه، اعترفوا بأنهم ما جرَّبوا عليه كذبًا قط، فعن ابن عباس قال: لما نزلت: وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (الشعراء: ٢١٤) ، صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: «يا بني فهر، يا بني عدي» - لبطون قريش - حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولًا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش،

٦٥ ابن حزم، الأخلاق والسير، ٩١.

٦٦ الرازي، معالم أصول الدين، ١٠٢.

فقال: «أرأيتكم لو أخبرتُكم أن خيلًا بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟» قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقًا؛ الحديث [٦٧] .

وهذا أبو سفيان يعلن أمام هرقل قيصر الروم بصدق النبي ﷺ، فلما سأله هرقل: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا، ثم قال هرقل بعد ذلك في محاورته لأبي سفيان: وسألتك، هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أنْ لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس، ويكذب على الله(عزوجل)، والحديث رواه البخاري[٦٨] .

بل كانوا يحكمونه عندما تنشب النزاعات بينهم، كما في قصة حكمه بينهم في وضع الحجر الأسود في مكانه من الكعبة، فعن قيس بن السائب أَنَّهُ كَانَ فِيمَنْ يَبْنِي الْكَعْبَةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟ قَالَ: وَلِي حَجَرٌ أَنَا نَحَتُّهُ بِيَدَيَّ أَعْبُدُهُ مِنْ دُونِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَأَجِيءُ بِاللَّبَنِ الْخَاثِرِ الَّذِي أَنْفُسُهُ عَلَى نَفْسِي، فَأَصُبُّهُ عَلَيْهِ، فَيَجِيءُ الْكَلْبُ فَيَلْحَسُهُ، ثُمَّ يَشْغَرُ فَيَبُولُ فَبَنَيْنَا حَتَّى بَلَغْنَا مَوْضِعَ الْحَجَرِ، وَمَا يَرَى الْحَجَرَ أَحَدٌ، فَإِذَا هُوَ وَسْطَ حِجَارَتِنَا مِثْلَ رَأْسِ الرَّجُلِ يَكَادُ يَتَرَاءَى مِنْهُ، وَجْهُ الرَّجُلِ فَقَالَ: بَطْنٌ مِنْ قُرَيْشٍ نَحْنُ نَضَعُهُ، وَقَالَ: آخَرُونَ نَحْنُ نَضَعُهُ، فَقَالُوا: اجْعَلُوا بَيْنَكُمْ حَكَمًا، قَالُوا: أَوَّلَ رَجُلٍ يَطْلُعُ مِنَ الْفَجِّ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالُوا: أَتَاكُمُ الْأَمِينُ، فَقَالُوا لَهُ، « فَوَضَعَهُ فِي ثَوْبٍ، ثُمَّ دَعَا بُطُونَهُمْ فَأَخَذُوا بِنَوَاحِيهِ مَعَهُ، فَوَضَعَهُ هُوَ ﷺ [٦٩] ، انظر إلى قولهم أتاكم الأمين ، فهذا يدل على شهرته بالأمانة فيما بينهم، وما دعا السيدة خديجة عليها السلام لطلب الزواج منه إلا أمانته وهو يعمل في تجارتها[٧٠] ؛ فكيف بعد ذلك يدعي النبوة؟

إن هذا أمر بعيد عن العقل والمنطق، إن العقل لا يمكن أن يتصور أن يظل إنسان كامل

---

٦٧ البخاري؛ كتاب الجمعة، باب، {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ} رقم٤٧٧٠، ج٦، ١١١.

٦٨ البخاري؛ كتاب، كَيْفَ كَانَ بَدْءُ الْوَحْيِ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَقَوْلُ الله جَلَّ ذِكْرُهُ {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِه}،رقم: ٧. ج١، ٩.

٦٩ احمد في مسنده، رقم١٥٥٠٤. ج٣، ٣٢٣.

٧٠ ابن هشام، السيرة النبوية الشريفة، ج١، ١٨٨.

الصدق والأمانة أربعين سنة، ثم يتحول فجأة إلى إنسان يدعي دينًا جديدًا، هذا لا يصدق، لذلك كان من أكبر الدلائل على نبوته هو صدقه وأمانته وحُسن أخلاقه قبل بعثته ﷺ؛ إذن مَن عرف الرسول ﷺ وصدقه ووفاءهِ وقولهِ علمنا علمًا يقينًا أنهَّ نبي، ولهذا أجابت السيدة خديجة عليها السلام على قوله ﷺ حين قال لقد خشيت على نفسي : كلا أبشر، والله لا يخزيك الله أبدًا، والله إنكَّ لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق [٧١] [٧٢] .

٧١ صحيح مسلم، كتاب الايمان، باب بدء الوحي الى الرسول ﷺ : الحديث: ١٦٠، ج ١، ١٤١.
٧٢ الماوردي، اعلام النبوة، ٥٦.

الخاتمة

بعد اكتمال صورة البحث كما أردنا لا بد من وقفة تأمل واستذكار لما حققه البحث من مقاصد وما توصل إليه من نتائج بعد هذه الرحلة المباركة؛ فأقول:

مبحث الارتكاز العقلائي من المباحث ذات الصلة العميقة بمبحث السيرة العقلائية، وهما مبحثان أصوليان بامتياز كما يقرر ذلك أصحاب الصنعة الأصولية.

مع كون مبحث الارتكاز العقلائي مبحثا أصوليًّا إلَّا إنه يمكن توظيفه في علوم أخرى ومسائل وقضايا مختلفة عن قضايا الفقه وأصوله.

لعل حداثة هذا المبحث الأصولي الذي ربما يمتد لمئتي سنة خلت، والإبهام الحاصل في صياغته هو ما أسهم في اعادة النظر فيه ومحاولة تقريره بصورة يمكن الإفادة منه في موضوعات مختلفة عن موضوعات مظانه الأصلية.

كانت محاولة ربط المبحث الأصولي بقضية كلامية محاولة لا تخلو من مخاطرة وبخاصة أن هذا الربط لم يحصل في السابق في هذه المسألة التي هي محل البحث؛ لذا كان الباحث حريصًا على التوطئة والتمهيد والسير من المقدمات إلى النتائج بحذر شديد.

على الرغم من حرص الباحث وحذره في خوض غمار هذه المسألة إلا إنه لا يزعم لنفسه التوفيق في عرض حيثياتها بدقة، وذلك أن هذه المسألة وهذا الربط بينها وبين مسألة مهمة، وهي حقية الرسل والرسالات تحتاج إلى فسحة في البحث بحيث لا يتقيد بعدد من الصفحات، أو بزمن معين حتى يتم الاستقراء التام المحقق لليقين الذي يزيل أيَّ شك وارتياب من المسألة.

تعد مادة هذا البحث باكورة الدراسات العلمية في المسألة، ويمكن أن تمهد الطريق لدراسات أعمق منها وأكثر جدة واستقراء ودقة.

الارتكاز العقلائي ليس دليلًا مستقلًا وحيدًا فريدًا في مسألة حقية الرسل والرسالات؛ بل هو دليل ساند لغيره، وعاضد له، فلا ينبغي أن يدقق فيه وفي شرائطه وإنما يستأنس به.

الارتكاز العقلائي في الدرس الكلامي يجب أن يلحظ فيها ثلاثة أمور اساسية: تباني العقلاء على الشيء، سكون النفس وانشراح القلب، عدم انخراق التباني ولو بشخص واحد.

المعجزة هي الدليل الأصيل في اثبات النبوات، ولا خلاف في ذلك، والخلاف إنما هل هو الوحيد، ولا يوجد ما هو اقوى منه دلالة على اثبات النبوة، وهنا محل الاختلاف والتنازع، والراجح يوجد غير دليل المعجزة من الدلائل ما هو أقوى رجحانًا منه.

تعد السيرة النبوية الشريفة دافعًا لتباني العقلاء على حقية الرسالة المحمدية قبل الإسلام وبعده.

المصادر

القرآن الكريم

الصدر؛ الشهيد، الارتكازات العقلائية ودورها في عملية الاستنباط، القسم الأول ، السيد ياسين الموسوي، موقع الابدال، ٢٠٢٠م. https://al-ab-dal.net/22903//.

الظاهري ؛ علي بن احمد بن سعيد بن حزم ابو محمد الأندلسي القرطبي ٤٥٦هـ ، الاخلاق والسير في مداواة النفوس، دار الآفاق الجديدة ،بيروت، ط٢، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

الطوسي ؛ محمد بن محمد الغزالي المتوفي٥٠٥هـ ، الأربعين في اصول الدين، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ط١، ١٤٠٩هـ - ١٩٩٨م.

البحراني ؛ محمد صنقور علي، اساسيات المنطق، حوزة الهدى للدراسات الاسلامية، ٢٠٠٨م.

الصدر ؛ السيد محمد باقر ، الأسس المنطقية للاستقراء-مبادئ الاستدلالات الأخرى في المنطق الأرسطي- .

البغدادي ؛ أبو منصور عبد القاهر بن طاهر التميمي ت ٤٢٩ ، أصول الدين ، مطبعة الدولة، إستانبول، ط١ ، ١٣٤٦ - ١٩٢٨ م.

اصول الدين، عبد القاهر بن طاهر البغدادي، المتوفي ٤٢٩هـ ، تحقيق: احمد شنس الدين، بيروت – لبنان، ط١.

القرطبي ؛ محمد بن احمد بن ابي بكر بن فرج الأنصاري الخزرجي شمس الدين المتوفي ٦٧١هـ ، الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والاوهام وإظهار محاسن الاسلام، تحقيق احمد حجازي السقا، دار التراث العربي ، مصر- القاهرة.

الطوسي ؛ ابي جعفر محمد بن الحسن بن علي، الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد، دار الاضواء للطباعة والنشر والتوزيع.

الدسوقي؛ محمد بن احمد بن عرقة ت ١٢٣هـ، أم البراهين بحاشية الدسوقي، مطبعة مصطفى البابي الحلي وأولاده - مصر ، طبعة أخيرة ، ١٣٥٨-١٩٣٩م.

الصدوق؛ الأمالي، المجلس العاشر، تحقيق: قسم الدراسات الاسلامية- مؤسسة البعثة، قم، ط، ١، ١٤١٧هـ.

الهاشمي؛ السيد محمود، بحوث في علم الاصول، الناشر المجمع العلمي للشهيد الصدر،ط٢.

الاسترابادي ؛ محمد جعفر، البراهين القاطعة في شرح تجريد العقائد الساطعة، مركز الابحاث والدراسات الاسلامية، قسم احياء التراث الاسلامي ٢٠١٥م.

الزَّبيدي ؛ حمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض الملقّب بمرتضى المتوفى ١٢٠٥هـ، تاج العروس من جواهر القاموس، المحقق مجموعة من المحققين، ط٢.

اليعقوبي ؛ حمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ابن واضح المعروف ت٢٨٤هـ ، تاريخ اليعقوبي ، تحقيق عبد الأمير مهنا، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان، الطبعة الأُولى، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

الجرجاني ؛ علي بن محمد بن علي الزين الشريف ت:٨١٦هـ ، التعريفات، تحقيق جماعة من العلماء، بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، ط١، ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م.

البخاري؛ حمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة

أبو عبد الله، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، المحقق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعةالأول،ى ١٤٢٢هـ.

البيهقي ؛ احمد بن الحسين بن علي بن موسى الخسروجردي الخراساني ابو بكر المتوفي٤٥٨هـ ، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.

تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، دلائل النبوة للبيهقي، المكتبة السلفية ، المدينة المنورة، ط١ ، ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م.

النيسابوري؛ الفتال، روضة الواعظين، تحقيق: السيد محمد مهدي السيد حسن الخرسان بدون ط، وت، منشورات الشريف الرضي- قم.

الترابي؛ الشيخ نجم، السيرة العقلائية، الحلقة الأولى .

السبحاني ؛ العلّامة المحقق جعفر، السيرة المحمدية على ضوء الكتاب والسنة والتاريخ الصحيح، إعداد واقتباس: د. يوسف جعفر سعادة، مطبعة اعتماد، قم - إيران، الطبعة الأُولى، ١٤٢٠هـ.

جمال الدين ؛ عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري ابو محمد المتوفي ٢١٣هـ ، السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الابياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط٢ ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م.

الحملاوي ؛ أحمد بن محمد المتوفى ١٣٥١هـ، عبد الجبار؛ للقاضي، شذا العرف في فن الصرف، ط،١ لبنان- بيروت.

تحقيق: عبد الكريم عثمان، ت٤١٥ هـ ، شرح الأصول الخمسة، مطبعة الاستقلال الكبرى-القاهرة، ط ١١٣٨،٤هـ.

القاري ؛ علي بن سلطان محمد ابو الحسن نور الدين الملا الهروي المتوفي ١٠١٤ هـ ، شرح الشفا، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١ ١٤٢١هـ.

القاري ؛ علي بن سلطان محمد ابو الحسن نور الدين الملا الهروي المتوفي ١٠١٤ هـ ، ضبط وتصحيح: عبد الله محمد الخليلي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأُولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

التفتازاني ؛ مسعود بن عمر سعد الدين، المتوفي ٧٩١هـ ، شرح العقائد النسفية، وبهامشه فرائد القلائد في تخريج أحاديث العقائد، للملا على القاري الحنفي، تحقيق: الاستاذ علي كمال، دار أحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.

الفارابي؛ أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري المتوفى ٣٩٣هـ ، الصحاح، ط١، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

المحسني؛ محمد آصف، صراط الحق في المعارف الاسلامية والاصول الاعتقادية، ط ١ ،مطبعة ذوي القربى ٤٢٨هـ .

الدوري؛ د. قحطان عبد الرحمن، العقيدة الإسلامية ومذاهبها، كتّاب ناشرون، بيروت- لبنان، ط ٢٠١٢،٢م.

نعمة؛ عبد الله، عقيدتنا في الخالق والنبوة والآخرة، ط١، دار البلاغة ٢٠١٥ .

الامدي ؛ علي بن ابي علي بن محمد بن سالم الثعلبي المتوفي ٦٣١هـ ، غاية المرام في علم الكلام، تحقيق: حسن محمود عبد اللطيف، الناشر، المجلس الأعلى

للشؤون الاسلامية – القاهرة.

الشافعي ؛ صفي الدين محمد بن عبد الرحيم بن محمد الأرموي الهندي المتوفى ٧١٥ هـ، الفائق في أصول الفقه، تحقيق: محمود نصار، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة الخانجي – القاهرة.

الطرابلسي ؛ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري المتوفى: ٤٥٦هـ، الكراكي؛ الشيخ محمد بن علي، كنز الفوائد، حققه وعلق عليه العلامة الشيخ عبد الله نعمة، دار الاضواء بيروت.

لجنة الفقه المعاصر، انتشارات مركز مديرية حوزه.

الحائري؛ السيد كاظم، مباحث الأصول، ط، ١، اصدار مكتب سماحة اية الله العظمى السيد كاظم الحسيني الحائري.

الحائري؛ كاظم، مباحث الاصول، دار البشير – قم، ط١، ١٤٢٨هـ.

حب الله ؛ حيدر، مجلة فقه أهل البيت (عليهم السلام)، العدد٢٠.

الشيباني؛ أحمد بن حنبل أبو عبد الله، مسند أحمد بن حنبل، المحقق: مكتب البحوث بجمعية المكنز الناشر: جمعية المكنز الإسلامي، الطبعة: الأولى، ١٤٣١هـ، ٢٠١٠ م.

النيسابوري ؛ مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري المتوفى ٢٦١هـ، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ ، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط،١.

الرازي ؛ محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين، خطيب الري المتوفي٦٠٦هـ ، معالم اصول الدين، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الكتاب العربي – لبنان.

الشيخ الصدوق؛ معاني الأخبار، مؤسسة النشر الاسلامي ودار المعرفة.

إبراهيم مصطفى ، أحمد الزيات ، حامد عبد القادر، محمد النجار، المعجم الوسيط، ط،٢، بيروت– لبنان.

بن زكريا؛ أبو الحسين أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، المحقق: عبد السلام محمد هارون الناشر: دار الفكر، الطبعة: ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

المظفّر؛ محمد رضا، المنطق، المتوفي ١٣٨٨هـ ، مطبعة النعمان – النجف الاشرف.

المظفّر؛ محمد رضا، المنطق، ط، ٢، دار المعارف للمطبوعات .

العوايشة؛ حسين بن عودة، الموسوعة الفقهية الميسرة، المكتبة الإسلامية عمان – الأردن ، دار ابن حزم بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، من ١٤٢٣ – ١٤٢٩ هـ.

البغدادي؛ الامام الشيخ المفيد محمد بن محمد النعمان ابن المعلم ابي عبد الله العكبري، النكت الاعتقادية، تحقيق: رضا المختاري.

الأصفهاني؛ محمد حسين، نهاية الدراية في شرح الكفاية، تحقيق، ماجد الغرباوي، نشر المشعر.